نظرية الجوهر في الفكر الإسلامي

وأثرها في الفكر الحديث

د / أحمد عبد الله الطيار

أستاذ العقيدة

بجامعة الإمارات العربية المتحدة

كلية الشريعة والقانون

بسم الله الرحمن الرحيم



لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد النبي الأكرم وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واتبع سنته إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد

فنظراً لأن بعض الباحثين قد أهمل قضايا التراث الفكري الإسلامي بحجة أنه لا فائدة من البحث في القديم ، فقد وجدت من واجبي القيام بخوض غمار البحث في التراث لاصطياد بعض لآلئه الحسان وإبرازها للباحثين كي يعرفوا أنه لا حديث بلا قديم .

من هذا المنطلق جاء هذا البحث مقارناً بين الفكر القديم ممثلاً عند فلاسفة اليونان والهنود القدماء وما جاء في الفكر الإسلامي سواء عند الفلاسفة الإسلاميين أو المتكلمين . ومن ثم المقارنة بين هؤلاء والفكر الحديث ، وكيف أن المحدثين قد اعتمدوا على فكر الأقدمين ، ولذا يجب أن يفهم الباحثون أن ما جاء في الفكر الحديث ليس من بنات أفكارهم وإنما هم عالة فيه على القدماء .

وقد جاء البحث الذي عنونته (**نظرية الجوهر في الفكر الفلسفي**) مرتباً على مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة .

أما المقدمة : فقد اشتملت على الأهمية العلمية للموضوع .

أما المبحث الأول : فقد جاء تحت عنوان : (**مفهوم الجوهر**) وتناولت فيه : تعريف الجوهر ومفهومه .

وأما المبحث الثاني : فهو بعنوان (تاريخ فكرة الجوهر) وقد تناولت فيه تاريخ هذه الفكرة عند اليونان والهنود والقدماء إلي أن وصلت إلي الفكر الإسلامي ومن ثم الفكر الحديث .

وأما المبحث الثالث : فقد جاء تحت عنوان : **(الجوهر الفرد في الفكر الإسلامي)** وقد تناولت فيه الحديث عن فكرة الجوهر الفرد سواء عند الفلاسفة الإسلاميين أو المتكلمين وإبراز مواقفهم منها .

وأما المبحث الرابع : فقد جاء بعنوان (الجوهر في الفكر الحديث) وتناولت فيه إبرز آراء الفلاسفة المحدثين من فكرة الجوهر ، وكيف أنهم قد اعتمدوا على فكر القدماء في القضية .

وأما الخاتمة : فقد اشتملت على أبرز النتائج التي توصل إليها البحث .

والله ولي التوفيق

المبحث الأول

مفهوم الجوهر

مفهوم الجوهر :

لغة : يطلق لفظ جوهر على كل حجر يستخرج منه شيء ينتفع به ، وجوهر كل شيء ما خلقت عليه جبلته .

وقيل لفظ الجوهر فارسي معرب .

وقيل إن الجوهر مشتق من الجهر بمعني الظاهر ، ومنه جوهر الرجل أى هيئته وحسن منظره [1] .

أما الجوهر في الاصطلاح : فقد اختلف الفلاسفة والمتكلمون في تحديد مفهومه .

أما الفلاسفة : فقد اختلفوا في تصورهم للجوهر .

ويعتبر أرسطو أول من قدم تصوراً واضحاً لمصطلح " جوهر " وقد تأثر به فلاسفة الإسلام ويري أرسطو أن الجوهر هو الموضوع الحقيقي للحمل ووجد تطبيقاً لهذا المعني في جميع الأشياء المادية يقول في ذلك (الجوهر هو الماهية أو الخاصة الأساسية التي تعطي للشيء الجزئي وجوده وحقيقته) [2] ، وينطبق هذا التعريف على أى شيء جزئي مادي محدد .

---

١ – انظر لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ٧٢ ، ط دار المعارف ، وانظر قاموس المحيط–الفيروز ابادي ج ١،ص ٣٩٥،ط ١ مؤسسة الحلبي وشركاه

٢ – النفس والجسد ، د . محمود زيدان ص ٧٧ ط ١ دار الكتب الجامعية .

أما الكندي : فقد عرف الجوهر بأنه (هو القائم بنفسه الحامل للأعراض ، غير القابل للكون والفساد) [1] وأما الفارابي فقد أطلق مصطلح " الجوهر " على عدة معان منها :

أ – الحجارة التي في غاية النفاسة .

ب – ماهية الشيء .

ج – وما به ماهيته وقوام ذاته .

د – ويقال على كل مشار إليه لا في موضوع أصلاً .

هـ – ويقال على كل محمول عرف ما هو هذا المشار إليه من نوع أو جنس أو فصل [2] .

وحاول الفارابي الربط بين كل هذه المعاني السابقة فقال (فيشبه أن يكون الفلاسفة نقلوا إلي الجوهر هذا الاسم من الحجر الذي هو أنفس الأموال عند الجمهور وأجلها ، فرأوا ما يقتنيه الإنسان ، فسمي لذلك باسمه ، ولذلك قد تقع المقايسة بين هذا المشار إليه وبين كلياته ، فينظر أيهما أحرى أن يكون له هذا المعني الذي قيل لكل واحد منهما بأنه جوهر، وهو : أيهما أوثق وجوداً وأكمل ، (فإن " أرسطو طاليس " يسمي المشار إليه الذي لا في موضوع " الجوهر الأول " وكلياته " الجواهر الثواني " إذا كانت تلك هي الموجودة خارج النفس ، وهذه إنما تحصل في النفس بعد تلك ، وسائر الأشياء التي قيلت في كتاب المقولات . فهذه هي الجواهر على الإطلاق) .

١ – رسائل الكندي الفلسفية ، ص ١١٤ تحقيق ، د . أبو ريدة ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، دار الفكر العربي ، مكتبة الخانجي .

٢ – انظر الحروف – الفارابي ص ٩٩ : ١٠٠ تحقيق محسن مهدي ، ط ١٩٧٠ ، دار المشرق ، بيروت .

وأما المعني الثاني : فإنه جوهر مضاف ، ونقل إليه هذا الاسم عن المعاني التي يسميها الجمهور الجوهر ، على أنه جوهر لشيء ما . مثل جوهر الذهب أو جوهر زيد أو جوهر هذا الثواب [١] ... الخ .

ولا يخفي تأثر الفارابي كغيره من فلاسفة الإسلام بأرسطو . وأيضاً نجد فلاسفة العصر الحديث أمثال ديكارت واسبينوزا وكانط وغيرهم قد تأثروا هم الآخرون بأرسطو في تصورهم للجوهر .

وعلى سبيل المثال نجد ديكارت يعرف الجوهر بأنه هو الشيء الدائم الثابت الذي يقبل توارد الصفات المتضادة عليه دون أن يتغير ، وضرب لذلك مثالاً بقطعة الشمع إذا اقتربت من النار فإن طعمها يزول وتتلاشي رائحتها ويتغير لونها وشكلها وحجمها وتصبح من السوائل في حين أن الشمعة ذاتها باقية ممتدة لينة ، متحركة [٢] .

أما اسبينوزا فقد نسج على منوال سلفه ديكارت فجاء تعريفه قريباً من تعريف ديكارت حيث تصور اسبينوزا الجوهر على أنه (هو القائم بذاته والمدرك لذاته) [٣] .

أما كانط ، فقد تصور الجوهر على أنه (تصور قبلي ناشيء عن صورة الحكم المطلق من حيث إنه إسناد محمول إلي موضوع ، أو رفعه عنه ، وأولي مقولات الإضافة إنما تنشأ عن إيضاح النسبة بين الموضوع والمحمول ، وهي النسبة بين الجوهر والعرض ، وصورتها دوام كمية المادة) [٤] . ويلاحظ – أيضاً – تأثر كانط بديكارت في تصوره للجوهر .

---

١ – انظر المصدر السابق ، ص ١٠١ .
٢ – انظر تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولي – ديكارت ص ٧٧ : ٧٩ ترجمة كمال الحاج ، ط ١ ، ١٩٦١ م منشورات عويدات ، بيروت .
٣ – المعجم الفلسفي – جميل صليبا ، ج ١ ص ٤٢٥ ، ط ١٩٨٢ م ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .
٤ – المصدر السابق ، ص ٤٢٦ .

وبهذا يكون جميع الفلاسفة سواء منهم الإسلاميون أو المحدثون الأوربيون قد تأثروا بأرسطو .

وأما المتكلمون فقد اختلفوا في تصورهم لحقيقة الجوهر ، فذهب المعتزلة إلي أن حقيقة الجوهر (ما له حيز عند الوجود) (١) . وأما الأشاعرة قد اختلفت وجه نظرهم في تصورهم للجواهر . ويتضح ذلك مما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه " مقالات الإسلاميين " حيث ذكر أربعة آراء مختلفة هي :

أولاً : أن النصارى قد ذهبوا إلي أن القائم بذاته هو الذي يطلق عليه جــوهر .

ثانياً : وأن بعض المتفلسفة ذهبوا إلي أن الجوهر هو القائم بالذات القابل للمتضادات .

ثالثاً: وذهب البعض – ولم يسمهم – أن الجوهر ما إذا وجد كان حاملاً للأعراض .

رابعاً : وذهب الصالحي إلي أن الجوهر هو ما احتمل الأعراض ، وقد يجوز عنده أن يوجد الجوهر ، ولا يخلق الله تعالي فيه عرضاً ، ولا يكون محلاً للأعراض إلا أنه محتمل لها (٢) .

ويلاحظ هنا أن الشيخ الأشعرى لم يذكر رأيا خاصاً به وإنما حكي بعض الآراء دون إظهار ميل لرأى معين منها .

---

١ – التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض – الحسن بن متويه النجراني المعتزلي ، ص ٤٧ ، تحقيق ، د . سامي نصر لطفي ، د . فيصل عون ط ١ ، دار الثقافة القاهرة .

٢ – انظر مقالات الإسلاميين – الأشعري ج ٢ ، ص ٨ ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ط ١ ، سنة ١٣٦٩ هــ – ١٩٥٠ ، مكتبة النهضة المصرية .

وذهب الباقلاني : إلي أن (الجوهر هو الذي يقبل من كل جنس من أجناس الأعراض عرضا ولو واحداً ، لأنه متي كان كذلك كان جوهراً ، ومتي خرج عن ذلك خرج عن أن يكون جوهراً) [١] .

وذهب إمام الحرمين إلي أن الجوهر هو كل جزء .

وقد اعترض على تصور المعتزلة للجوهر بأن لابد أن يكون موجوداً فقال (وهذا الحد مدخول ، فإنهم قد أثبتوا الشيء جوهراً في العدم ، وهو تحيزه ، ثم لما حددوا الجوهر قالوا : وهو المتحيز في الوجود ، فشرطوا في الحد الوجود ، والحد يفارق المحدود ، فإذا كان مشروطاً وجب كون المحدود مشروطاً ، حتي يتوقف كون الجوهر جوهراً على الوجود ، كما يتوقف التحيز عليه) [٢] .

أما سيف الدين الآمدي فقد وافق السابقين عليه من الأشاعرة وامتدحها فقال : (... وأما عبارات أصحابنا فيه ، وإن كانت مختلفة فكلها جامعة مانعة) [٣] .

وإذا كانت هذه هي تصورات الفلاسفة والمتكلمين للجوهر ، فما هي صفاته ؟

صفات الجوهر :

من خلال عرضنا السابق لتعريفات الفلاسفة والمتكلمين للجوهر تبين انه يشتمل على عدة صفات منها :

---

١ - التمهيد - الباقلاني ص ٤١ ، تعليق محمود الخضري ، وأبو ريدة ط سنة ١٣١٦ هـ - ١٩٤٧ م ، دار الفكر العربي .
٢ - الشامل في أصول الدين الجويني ص ١٤٢ ، تحقيق د . النشار ، ود . فيصل عون ، د . سهير مختار ، ط سنة ١٩٦٩ م ، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية .
٣ - أبكار الأفكار للآمدي ص ١٥٠ مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم (١٦٠٣) علم الكلام .

١ – **الوجود :** وهي صفة أساسية ، اتفق عليها الأكثرية ، إلا أن بعض المعتزلة ذهب إلي أن الجوهر يكون جوهراً حتى في حال عدمه ومن بين هؤلاء أبو هاشم وأبو علي ، ولكن أبا القاسم البلخي قد رد عليهم بأن الوجود شرط للجوهر ، ولا يكون في حال العدم (١)

٢ – **التحيز :** وهذه الصفة – أيضاً – من أساسيات الجوهر وهي ركن من أركان وجوده ، إذ أن التحيز مشروط بالوجود . وقد عرف كل من إمام الحرمين وابن متويه بأنه المتحيز ، أو ماله حيز عند الوجود (٢) .

٣ – **الحدوث :** وهذه الصفة من الصفات الضرورية – أيضاً – عند القائلين بحدوث العالم وأنه مخلوق من عدم .

وقد اثبت هذه الصفة جميع المتكلمين ولكن الفلاسفة قد خالفوا المتكلمين حيث ذهب معظمهم إلي القول بأزلية المادة ، والمادة عندهم جوهر ، وبنوا عليها قولهم بقدم العالم .

٤ – **في جهة :** أى كون الجوهر كائناً في جهة يشار إليها ، وأثبت ذلك كل من الحسن بن متويه وابن رشد وابن سينا والإمام الرازي وغيرهم .

٥ – **يجوز عليه الفناء :** وقد تفرد المتكلمون بإثبات هذه الصفة .

٦ – **يمتنع عليه التداخل :** وأن وحدة الجوهر ووحدة حيزه متلازمان وقال المتكلمون أيضاً بهذه الصفة دون غيرهم .

---

١ – انظر المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين – أبو رشيد النيسابوري ، ص ٣٧ : ٣٦ تحقيق معين زيادة ورضوان السيد ط ١٩٧٩ م ، معهد الإنماء العربي – بيروت .

٢ – انظر الإرشاد – للجويني ص ١٧ والتذكرة في أحكام الجواهر والاعراض للحسن بن متويه ، ص ٥٦ .

٧ – الجوهر لا ضد له : وهذه الصفة قد اجمع عليها الفلاسفة الإسلاميون وهم في ذلك قد تابعوا أرسطو متابعة تامة [١] .

٨ – الجوهر لا يشتد ولا يضعف : وهذه الصفة وثيقة الصلة بسابقتها ، ومعناها أن جميع الجواهر متساوية ، فجوهر زيد لا يقل ولا يزيد عن جوهر عمرو . وكذلك فإن جوهر الإنسان وهو طفل هو نفس جوهره وهو شاب ، وهو شيخ ... الخ فالإنسانية بوصفها جوهر لا تخضع للزيادة ولا النقصان .

٩ – قبول الجوهر للمتضادات : وتعد هذه الصفة من الصفات الرئيسة للجوهر ، بل هي من الخواص الذاتية ، أو هي على حد قول أرسطو تعتبر من أولي الخواص بالجوهر ، وهي من أوضح الصفات في الجوهر لكونها عامة في جميع الجواهر ، فالجسم الواحد يمكن أن يكون أبيض أو أسود ، بارداً أو ساخناً ، حسناً أو قبيحاً .. ولكن ليس من جهة واحدة وفي نفس الوقت ، بل من جهتين مختلفتين إذا كان الوقت واحداً ، أو من جهة واحدة في وقتين مختلفين [٢] .

أقسام الجوهر : اختلف المتكلمون والفلاسفة في تقسيم الجوهر .

فذهب المتكلمون إلي أن الجوهر ينقسم إلي قسمين هما : الجسم ، والجوهر الفرد .

ورأوا أن الجوهر هو المتحيز ، والمتحيز إما أن يقبل القسمة سواء كان في جهة واحدة أو أكثر وهو الجسم ، أو لا يقبلها أصلاً وهو الجوهر الفرد [٣] .

اما الفلاسفة فقد ذهبوا إلي تقسيم الجوهر إلي خمسة أقسام هي :

---

١ – انظر فكرة الجوهر في الفكر الفلسفي الإسلامي ، د . سامي نصر لطفي ، ص ٦٩ .

٢ – انظر المصدر السابق ص ٧٤ .

٣ – انظر الإنصاف – الباقلاني ص ١٦ والإرشاد – الجويني ص ٤٢ ، والشامل للجويني ص ٤٠٢ .

الهيولي أو المادة ، الصورة ، الجسم ، النفس ، العقل .

يقول ابن سينا مصوراً ما ذهب إليه الفلاسفة من تقسيم للجوهر (إن كل جوهر فإما أن يكون جسماً ، وإما أن يكون غير جسم . فإن كان غير جسم ، فإما أن يكون جزء جسم ، وإما أن لا يكون جزء جسم ، بل يكون مفارقاً للأجسام بالجملة ، فإن كان جزء جسم ، فإما أن تكون صورته ، وإما أن يكون مادته ، وأن يكون مفارقاً ليس جزء جسم ، فإما أن تكون له علاقة تصرف ما في الأجسام بالتحريك ، ويسمي نفسا ، أو يكون متبرئاً من المواد من كل جهة ويسمي عقلاً [١] .

ويلاحظ أن هذا التقسيم للجوهر عند الفلاسفة لا يتضمن ما يسمي عند المتكلمين بالجوهر الفرد ، أو الجزء الذي لا يتجزأ .

١ – الشفاء – ابن سينا جـ١ ص ٦٠ ، تحقيق سعيد زايد مراجعة د . إبراهيم مدكور ط ١ ، ١٩٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

المبحث الثاني

تاريخ فكرة الجوهر

إن فكرة الجوهر كان لها وجود في التصور الفلسفي منذ أقدم العصور سواء في الفكر اليوناني أو الهندي .

أولاً : فكرة الجوهر عند اليونان :

عرفت هذه الفكرة عند اليونان – قديماً – بالذرة ، وكان لها رجالها الذين اشتهروا من بين المفكرين بأنهم أصحاب المذهب الذري .

وقد اختلف المؤرخون حول الأصل التاريخي لمصطلح الجوهر .

فذهب البعض إلي أن أصل الفكرة ترجع إلي اليوناني في عصر ما قبل السوفسطائيين وسقراط ، أمثال " طاليس " و " هرقليطس " وغيرهما ، ومن هؤلاء المؤرخين " جان فال " الذي أرجع فكرة الجوهر " إلي أصول ثلاثة .

أ – مدرسة الطبيعيين الأولين .

ب – عصر أرسطو .

ج – العصر الحديث .

يقول " جان فال " عن تاريخ مصطلح " جوهر " (إن تصور الأوائل للجوهر كان تصوراً ناقصاً ، لأنهم لم يتوصلوا إلي معرفة كيفية الفصل بين الجوهر المادي والجوهر الروحي ، فلم تكن لديهم فكرة واضحة عن كليهما ، ولكن القسمة الثنائية كانت كامنة في فكرة الجوهر ، فعندما قال طاليس : (إن المادة خاصة بالآلهة ، فإن كلامه كان يعني بالفعل وجود انقسام بين المادة

والآلهة الموجودة فيها ثم وضحت مشكلة الثنائية بين الجوهر عند سقراط بعد تأثره بالفيثاغوريين وبتأملاته الأخلاقية ، فأصبح الجوهر هو المثال) [١] .

ويقول أيضاً (إن أرسطو كان أعظم تأثيراً من أفلاطون على تطور فكرة الجوهر ، فقد اعتقد أن الأصح هو اعتبار الجوهر وحدة الصورة والمادة ، ولكنه لم يستطع القول : كيف توجد الماهية مستقلة عن المادة ، ومن ثم لا يصبح اعتبار الجوهر الذي جاء به جوهراً إلا إذا أضيف إليه عنصر لا جوهري ، كما انتقد أرسطو أفلاطون في التجريد الذي ظهر في فكرته عن الجوهر) [٢] .

ويقول أيضاً : إن (لفكرة الجوهر أصلاً موضوعياً يرجع إلي الأشياء ذاتها ، وأنه ينبغي أن يفرق الشخص بين المنضدة والكرسي والشجرة ، كي يكتشف نفسه في هذا العالم . والطفل يتخيل الأشياء محتويه في باطنها على نوع من الفحوي الروحي ، وهذا يكشف لنا عن أول أصل لفكرة الجوهر ، وهي تأمل الأشياء عن الأصل) [٣] .

وهذا المفهوم هو الذي ذهب إليه الطبيعيون الأولون حينما سألوا أنفسهم عن أصل وحقيقة الأشياء التي يتكون منها العالم .

ومن أبرز هؤلاء " ديموقريطس " (ت ٣٦١ ق . م) والذي يعد أول من نادي بهذه الفكرة من بين فلاسفة اليونان .

حيث رأي أن الملاء والخلاء معاً هما المكونان الرئيسان للأشياء جميعاً . وقسم الملاء إلي أجزاء كثيرة لا حصر لها وأسماها " الذرات " وتوجد مفصولة بعضها عن بعض .

---

١ - طريق الفيلسوف ، ص ٤٠ .
٢ - المصدر السابق ، ص ٤١ .
٣ - طريق الفيلسوف ، جان فال ، ترجمة أحمد حمدي محمود ص ٤٩ بتصرف مراجعة د . أبو العلا عفيفي ط ١٩٦٧ م الناشر مؤسسة سجل العرب ، القاهرة .

ويري " ديموقريطس " أن الذرات قديمة لا بداية لوجودها ولا نهاية لها ، خلافاً لما عليه المتكلمون .

ويري أنها متشابهة في طبيعتها ، وإنما تختلف من حيث الشكل والحجم . وهذه الذرات – عنده – تتحرك بذاتها ، دون محرك من خارج ، وأن حركتها مستمرة على شكل دائرة .

وعلى أساس هذا التصور للذرات ، فسر " ديمقريطس " التغير الذي يحدث في الوجود على أنه إما اتصال للذرات أو انفصالها بعضها عن البعض الآخر [١]

وإذا كان " ديمقريطس " قد افترض ضرورة وجود خلاء كي تتم حركة الذرات ، فإن " أرسطو " قد ذهب إلي أن الخلاء ليس شرطاً ضروريا لإتمام هذه الحركة .

ومن هنا يري أرسطو أن الوجود واحد ساكن ، حيث لا وجود للخلاء – عنده – سواء بالفعل أو بالقوة مفارقاً أو غير مفارق .

والشيء الوحيد الذي يقبل الضدين الفعل والقوة هو المادة لذا كانت هي موضوع التغير [٢] .

ولذلك يري أرسطو أن الفاعل الموحد هو الذي يوجد المادة والصورة معاً جملة ، وذلك عن طريق تحريكها تحريكاً يسهل لها الخروج من حيز القوة إلي حيز الفعل (الوجود) .

وتنحصر وظيفة الفاعل – عند أرسطو – على تسهيل خروج المادة من حيز القوة إلي حيز الوجود ، ويعمل على اتصالها بالصورة . أي الاتصال بين

---

١ – انظر تاريخ الفكر الفلسفي د . محمد علي أبو ريان ج ١ ص ٩٠ : ٩٢ ط ١ ، ١٩٦٥ م ، مكتبة الإسكندرية .

٢ – انظر المصدر السابق ج ١ ص ١٠١ .

المادة والصورة . وأن كل عملية إيجاد أو خلق إنما هي عبارة عن حركة سببها الحرارة ، حتى إذا ما انتشرت في الماء والتراب تولدت عنها الحيوانات والنباتات من غير لقاح . وهذا ما يسمي عند البعض بالتولد الذاتي .

والفاعل . عند أرسطو – لا يخلق الصورة خلقا لأنه يري عدم جواز الشيء من لا شيء وقد تابعه على ذلك بعض فلاسفة الإسلام كابن سينا الذي يري أن قوة الإيجاد والخلق موجودة في الفاعل ، ولكنه لا يمكن خلق الشيء إلا من شيء أما المتكلمون فقد خالفوهم في ذلك ورأوا أن الخالق يخلق الشيء من لا شيء أخذاً من دلالة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

ثانياً : فكرة الجوهر عند الهنود :

لا يعرف بالتحديد مصدر القول بالجوهر عند الهنود ، ولا في أى وقت ظهر . ولكن يمكن القول بأنه قد شاع في الهند نظريات حول هذا المصطلح منذ حوالي القرن الخامس الميلادي وما بعده .

فقد ظهرت عند بعض فرق البوذية ، حيث ذهبت إلي أن المادة والمكان والزمان تنقسم إلي أجزاء لا تتجزأ ، ويشغل كل جزء من المادة نقطة من المكان ، وهذه الأجزاء لا تتنوع بتنوع العناصر ، لكن لها كيفيات أهمها أن تكون رطبة أو يابسة ، ويحصل اتصال الأجزاء بسبب درجة قوة هذه الكيفيات ، وذلك طبقاً لقواعد معينة . ومن هذه الفرق من قال بالتفرقة بين الجوهر والعرض .

فالجوهر عندهم – هو المادة المدافعة والممانعة ، والمكان والزمان . أما الأعراض فإن محلها الجواهر ، والأعراض لا تتحمل أعراضاً أخري [1] .

---

١ – انظر كتاب الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي د . محمد جلال شرف ص ١٧٩ ، ط ١٩٨٩ دار المعرفة الجامعية .

وقد حاول بعض فر ق البوذية – عند الرد على خصوم الجزء الذي لا يتجزأ – الخروج عن اعتراضهم من انه لابد أني يماس الجزء ستته من أمثاله .

وعلي هذا لابد أن تكون له ست جهات . ومن ثم يصبح له أجزاء . وهذه الجهات لا تكون إلا ذرة واحدة ، والفراغ أو الخلاء الذي يوجد خلال أى ذرة لا يمكن أن يقبل الانقسام .

وذهب البعض إلي وجود مركب لا ينقسم مؤلف من سبعة أجزاء لا تتجزأ ، وهو من حيث أنه مركب يتكون من ست جهات ، والجزء الواحد إنما يتصور وجوده في داخل هذا المركب ، ولا يتصور مفرداً [١] .

من خلال العرض السابق يتبين أن فكرة الجوهر احتلت مساحة ليست بالقليلة في الفكر الهندي القديم .

---

١ – المصدر السابق / ص ١٧٩ – ١٨٠ .

المبحث الثالث

الجوهر الفرد في الفكر الإسلامي

رأي فلاسفة الإسلام : أنكروا ما يسمي بالجوهر الفرد وذهبوا إلي أن الجسم كم متصل في نفسه قابل للقسمة إلي غير نهاية بحسب الإمكان وفرقوا بين فكرة انقسام الجسم إلي أجزاء لا نهاية لها بالفعل ، وبين انقسامه إلي أجزاء لا نهاية لها بالقوة ، وأجازوا الثانية إلي ما لا نهاية لها بالفعل ، وبين انقسامه إلي أجزاء لا نهاية لها بالقوة ، وأجازوا الثانية إلي ما لا نهاية ، وأنكروا لا نهائية الانقسام بالفعل . فالأجسام مركبة بالفعل من أجزاء متناهية .

موقف ابن سيناء : ذهب ابن سينا إلي أن (كل حادث زماني ، فهو مسبوق بالمادة لا محالة ، والمادة قديمة ، وإلا احتاجت إلي مادة أخري ، ويتسلسل ، والتسلسل باطل ، والمادة لا تخلو عن الصورة الجسمية ، أو النوعية ، فيلزم قدم الجسم [١] .

ويتبين مما قاله ابن سينا أنه أرسطي النزعة حين ذهب إلي أن كل جسم طبيعي مكون بالذات من جزئين : أحدهما يقوم مقام الخشب من السرير ويقال له " هيولي ومادة " والآخر يقوم مقام صورة السرير من السرير ، ويسمي صورة .

وكل جسم حادث أو متغير ، يفتقر من حيث هو كذلك إلي عدم يسبقه ، لولاه لكان أولي الوجود ، وكل جسم متحرك إما أن تكون حركته صادرة عن سبب من خارج ، وتسمي حركة قسرية .

١ – النجاة لابن سينا ص ٢٥٥ : ٢٥٦ ، تقديم د . ماجد فخري ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

وإما أن تكون صادرة عن سبب موجود في نفس الجسم ، من حيث إن الجسم لا يتحرك بذاته ، وذلك السبب إن كان محركاً على جهة واحدة على سبيل التسخير ، فيسمي طبيعة ، وإن كان محركاً حركات شتي بإرادته ، أو غير إرادة فيسمي نفساً [1] .

والأجسام عند ابن سينا إما بسيطة ، وهي التي لا تنقسم إلي أجسام مختلفة الطبائع مثل السماوات والأرض والماء والهواء والنار .

وإما مركبة ، وهي التي تنحل إلي أجزاء مختلفة الصورة ، منها تركيبت مثل النبات والحيوان والأجسام البسيطة توجد قبل المركبة ، وهي بسيطة لأن من شأنها أن يؤلف منها الأجسام المركبة ، أو لا يكون من شأنها ذلك [2] ويعتبر رأي ابن سينا ممثلاً لرأي الفلسفة الإسلامية فيما بعد ابن سينا .

وقد ذهب البعض الآخر أن مصطلح " جوهر " ترجم عن اليونانية إلي لفظ " عين " العربية يقول المستشرق الإيطالي " نذللينو " في مجلة الدراسات الشرقية إن ثمة فقرة مهمة بالنسبة إلي مسألة الكتب المنطقية التي ترجمها محمد ابن عبد الله بن المقفع ، وإلي استعمال لفظ " عين " بمعني " جوهر " .

وهذه الفقرة موجودة في كتاب مفاتيح العلوم لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي يقول فيها : ويسمي عبد الله بن المقفع الجوهر عينا ، وكذلك سمي عامة المقولات [3] .

---

١ – انظر الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي د . محمد جلال شرف ، ص ٢٠١ : ٢٠٢ .

٢ – المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

٣ – نقلاً عن التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ١١٩ (دراسات لكبار المستشرقين) ترجمة د . عبد الرحمن بدوي ط ١٩٤٠ م ، الناشر مكتبة النهضة المصرية .

إذن نخلص إلي أن مصطلح " جوهر " يوناني الأصل ، ثم عرب بعد ذلك ، وقد استخدمه فلاسفة الإسلام ووضعوا له مفاهيم تتفق مع مبادئهم ، ولكنه ليس بالفعل المصطلح المسمي بـ " الجوهر الفرد " عند المتكلمين .

يقول د . النشار " إنه أصبح واضحاً أن " أوسيا " أرسطو بالفعل " جوهر " فلاسفة الإسلام ، ولكنها ليست الجوهر عند المتكلمين ، وذلك لأنهم يقصدون به – في معظم الأحوال – الجزء الذي لا يتجزأ . أما إذا بحثنا عن مقابل الفكرة الجوهر القائم بنفسه عند فلاسفة الإسلام ، والأوسيا الأرسطية ، فإننا نجد ذلك الجوهر متمثلاً في فكرة الجسم عند المتكلمين (١) .

موقف المتكلمين من نظرية الجوهر الفرد :

أولاً المعتزلة : يعد المعتزلة أول من أثبت حدوث العالم عن طريق حدوث الأجسام حيث أثبتوا حدوث الأجسام بحدوث ما يستلزمها من الأعراض .

ورأوا أن الأجسام لا تنفك عن أعراض محدثة ، وما لا ينفك عن الحوادث أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث لا متناع حوادث لا أول لها .

موقف العلاف ، وقد ذكر الإمام ابن تيمية أن أبا الهذيل العلاف هو أول فيلسوف مسلم حاول حل المشكلة الطبيعية ، ولكن في ميدان عمل القدرة الإلهية في محيط أهم مقدور لها ، وهو العالم ، والذي رآه متغيراً غير ثابت ، فعالج التغير بمذهب الجزء الذي لا يتجزأ أو المذهب الذري (٢) .

فالعالم – عنده – يتكون من عدد من الذرات أو الجواهر الفردة ، وهي بسيطة لا تركيب فيها ، ويتصف هذا الجزء بأنه لا طول له ولا عرض ولا عمق

---

١ – فكرة الجوهر : د . سامي نصر لطفي ص ٢٦ ، ط ١٩٧٨ م ، مكتبة الحرية الحديثة .

٢ – انظر منهاج السنة ابن تيمية ص ٢٢١ تحقيق د . رشاد سالم ، ط ١ ، ١٩٦٢ م ، القاهرة .

ولا اجتماع فيه ولا افتراق . هذه الجواهر الفردة يتصل بعضها بالبعض ، أي يتصل كل جزء منها بالجزء الآخر ويفارقه ، أي أنه يتحرك ويسكن وينفرد . وعن طريق اجتماعها يحدث الكون ، وبانفصالها يحدث الفساد .وحركة هذه الأجزاء تكون في الزمان .

أما المكان فهو تحقيق للآنات المنفصلة فيه .

والعالم مكون من هذه الجواهر التي تتحرك في الخلاء وكل ما يحدث من تغير وأحداث فهو أعراض لهذه الجواهر ، كما يقتضيه سياق مذهب العلاف ، الذي يؤكد فيه القدرة الإلهية ، فإذا كان الله تعالي قادراً على كل شيء فهو قادر على تفريق الجسم ، حتي ينتهي إلي مقدار لا تأليف فيه ولا اجتماع قط ، أي ينتهي إلي جزء لا ينقسم .

ويؤكد مذهب العلاف تناهي المخلوقات الحادثة ، وأن لها كلا وجميعاً وغاية ونهاية . علي خلاف الخالق لها سبحانه وتعالي .

وهذا المذهب يعارض ما ذهب إليه " ديمقرايطس " معارضة صريحة حيث يري تحكم الآلية البحتة في مصدر الذرات بينما يرى العلاف أن مصدر الذرات هو الله سبحانه وتعالي وهو كائن روحي وعاقل يخلق الذرات ثم يتدخل في العالم ، لكي يقوم هو بتحريكها وتسكينها ، وكل ذلك خاضع للإرادة الإلهية والعالم الإلهي المحيط بكل شيء [١] .

موقف النظام :

لم يقبل النظام هذه الفكرة (فكرة الجزء الذي لا يتجزأ) وزعم أنه ليس جزء من الأجزاء إلا ويقسمه الوهم إلي نصفين بالقوة لا بالفعل ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف نقطع في مسافة يمكن تناهيها مكان لا نهاية له ؟ !!

١ - انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د . النشار ، ج ١ ، ص ٥٥٨ : ٥٦٢ ، ط ١٩٦٥ م ، الإسكندرية .

وهنا يري النظام أن الجسم قد يكون في مكان ثم ينتقل حضره إلي مكان آخر دون أن يمر بطريق الترتيب الثاني ثم الثالث مثلاً ، بل يمكن أن ينتقل من الثاني إلي الرابع أو الخامس مثلاً .

وتتفق فكرة الطفرة عند النظام مع فكرته في الحركة .

أما الأجسام فكلها متحركة ، حتى في الوقت الذي نحسبها فيه ساكنة . ولذلك ذهب النظام إلي أن الله تعالي خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن ، معادن ونباتا وحيوانا وإنسانا ، ولم يتقدم خلق إنسان على خلق إنسان آخر . حتى آدم نفسه أبو البشرية .

أما التقدم والتأخر فلا يكون في وجودها ، أو في حدوثها ، وإنما في صدورها في أماكنها أى أن الله تعالي أكمن بعض الموجودات في بعض ، فإذا جاء وقت ظهورها ظهرت ، أى حدثت لها حركة ، والحركة هي العرض الثابت

والعالم – عنده – يتكون من أعراض هي أجسام لطيفة ، والله تعالي لا يعطي للناس القدرة على كل شيء من الأعراض سوي الحركة .

ومن هذه الأجسام اللطيفة نجد الألوان والأصوات والطعوم ، فلا دخل للإنسان في فعلها ، ولا يستطيع التوصل إلي معرفتها وحقيقتها ، وإنما الذي يفعلها هو الله تعالي [1] ولكن سهام النقد وجهت إلى النظام لقوله بما يسمى :

بالطفرة لكي يخرج من المأزق الذي وقع فيه ، حيث هرب من القول بالخلاء في الزمان والمكان والحركة إلي القول بالطفرة ، واعتبر الحركة طفرة

---

١ – انظر تاريخ الفلسفة في الإسلام – دي بور ص ٩٦،ترجمة، د . أبو ريدة ، ط ١٩٥٤ م،القاهرة، وانظر مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين في الإسلام،أو توبر ينتزل ص ١٤٢،ترجمة، د. أبو ريدة،ط ١٦٤٦ م القاهرة .

من نقطة إلي أخري ، كما أن الزمان طفرة من آن إلي آن . ومن بين الذي انتقدوه لقوله بالطفرة كلام الشهرستاني والبغدادي والمستشرق دي بور [1] .

موقف معمر بن عباد السلمي :

حاول التوفيق بين معاصريه العلاف والنظام ، ورأي أن الجسم هو الطويل والعريض والعميق كالنظام ، ولكنه مع ذلك مكون من أجزاء لا تتجزأ ، وأقل الأجسام ثمانية أجزاء ، فإذا اجتمعت وجبت الأعراض كما ذهب إلي ذلك العلاف .

ويري معمر السلمي أن الأجسام كلها ساكنة في الحقيقة بالفعل ومتحركة بالقوة ، على العكس من النظام . والسكون هو الكون .

وكأنه يريد إنكار حركة الأجسام في وقت خلقها وإنكار فكرة فلاسفة الإسلام المشائين التي تقول بأن الحركة هي الخروج من العدم إلي الوجود ، أو من القوة إلي الفعل [2] .

لكن من الملاحظ أن أرسطو قد جعل وظيفة الفاعل هي التحريك فقط ، أي تسهيل الخروج للشيء من القوة إلي الفعل (الوجود) على العكس من " معمر " الذي جعل منح الله تعالي الوجود للمعدوم ليس حركة ، وإنما هو خلق .

مما سبق يتضح أن جميع المعتزلة قالوا بالجزء الذي لا يتجزأ (الجوهر الفرد) ما عدا النظام .

وأن أول من قال بهذه الفكرة من المعتزلة هو أبو الهذيل العلاف .

---

١ – انظر المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٩٥ : ٥٩٩ .

٢ – انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج ١ ، ص ٦٢٥ .

وقد وافق ابن حزم الظاهري النظام في رفضه لهذه الفكرة .

كذلك أنكر ابن تيمية فكرة الجوهر الفرد . يقول في ذلك (.. أين في القرآن الجسم الاصطلاحي المركب من الجواهر الفردة التي لا تقبل الانقسام ، أو من المادة والصورة) [1] .

ويقول أيضاً (القول بإثبات الجوهر الفرد مما أنكره أئمة السلف والفقهاء وأهل الحديث والصوفية وجمهور العقلاء ، وكثير من طوائف أهل الكلام كالهاشمية والضراوية والنجارية) [2] .

ثانياً : موقف الأشاعرة :

قال الأشاعرة بنظرية الجوهر الفرد لمعارضتها فكرة أرسطو عن المحرك الأول ، الذي يحرك فقط ولا يتحرك ، وكذلك فكرته عن المادة القديمة المتحركة وقد وضع الأشاعرة لهذه الفكرة (فكرة الجزء الذي لا يتجزأ) أساساً عقائديا هاما وهو أن الله تعالي أزلي قديم .

أما العالم وهو ما سوي الله فمكون من جواهر وأعراض ، وجميعها حادثة ، وكل لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

ولابد لهذه الأعراض والجواهر من محدث وهو الله عز وجل ، الذي يخلق هذه الأجزاء ، ثم تفنى فيعيد خلقها ، ووجودها يستند في كل الأحوال والأزمنة على التدخل الإلهي . وهذا هو الخلق الجديد ، أو الخلق المستمر [3] .

---

١ – درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية ج ٤ ص ١٣٤ تحقيق ، د . محمد رشاد سالم ط دار النور الأدبية .
٢ – المصدر السابق نفس الصفحة .
٣ – انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلامي ، د . النشار ، ص ٥٦٦ : ٥٦٧ .

وقد ذهب الأشاعرة إلي أن (الجسم هو المؤلف أو المؤتلف وينتهي بالتجزئة إلي حد لا يقبل التجزئة . وأول من قال بذلك من الأشاعرة شيخ الأشاعرة أبو الحسن الأشعري ، فذهب إلي أن الأشياء كلها متناهية كالحركة والزمان ، والعلل والمعلولات . والجسم ينقسم إلي نهاية لا انقسام بعدها ، وكان يجد أصل القول بذلك في قوله تعالي : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ . وقال إن الإحصاء لا يحيط إلا بما له نهاية ، فيجب أن تكون أجزاء الجسم متناهية في عددها) [1] .

وقد أثبت هذه الفكرة من الأشاعرة ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً كل من القاضي الباقلاني ، وإمام الحرمين الجويني والإمام أبو حامد الغزالي [2] .

---

١ – مذهب الذرة عند المسلمين – بينيس ص ٢ ، ترجمة ، د . أبو ريدة والآية من سورة يس رقم (١٢) .

٢ – انظر التمهيد – الباقلاني ص ٤١ : ٤٢ ، والشامل للجويني ص ١٤٨ وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول – ابن تيمية ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، تحقيق ، د . محي الدين عبد الحميد وحامد الفقي ط ١٩٥١ م ، القاهرة .

المبحث الرابع

فكرة الجوهر في الفكر الحديث

احتلت فكرة الجوهر أو (الذرة) مساحة كبيرة في العصر الحديث ، وحاول الفيزيائيون التعرف على مكوناته ، وهل يمكن انحلالها أم لا ؟

هنا حدثت ثورة علمية كبيرة في تحليل الذرة ومعرفة مكوناتها ، فتغيرت فكرة العلماء عنها تماماً .

يقول د / أبو ريدة مصوراً هذا التغير (... وفي العصر الحديث وخصوصاً قبل أن تتغير فكرتنا عن ما هية المادة بفضل جهود علماء الطبيعة المعاصرين ، كان العلم يؤيد متكلمي الإسلام القائلين بالذرة ، وهي الجوهر الفرد في اصطلاحهم ، على فلاسفة الإسلام الذين أنكروها ، ولا شك أن متكلمي الإسلام كانوا في كثير من الأحيان أرزن وأقرب إلي روح العلم من فلاسفته)(١) .

ويقول " هانز ويشنباخ " (إن نظرية الذرة قد بلغت في القرن التاسع عشر مرحلة بدا فيها وجودها أمراً لا يتطرق إليه الشك) (٢) .

وبعد أن اصبح ثبوت وجود الذرة أمراً لا شك فيه ، حاول الفيزيائيون التوصل إلي معرفة مكوناتها ، وذلك على وجه التقريب في القرن العشرين ، حيث اكتشف النشاط الإشعاعي ، وهو عبارة عن الانحلال الذاتي للذرات .

يقول د / جورج جامون وهو من أبرز رجال الفيزياء النووية المعاصرين (لقد اعتبرت الذرات دقائق أساسية لا تنقسم ، وإنها ظلت في حالتها تلك أطوارا من الزمان غير متناهية ، ومهما يكن من أمر ذلك ، فإنه عندما استكشفت

---

١ – مذهب الذرة عند المسلمين ص ١ : ٢ .

٢ – نشأة الفلسفة العلمية – هانز ويشنباخ ص ١٥٠ ترجمة د / فؤاد زكريا ط ١٩٦٧ م ، دار الكتاب العربي ، القاهرة .

العناصر الطبيعية ذوات النشاط الإشعاعي تحول الموقف تماماً ، فقد انحلت الآن واختلفت نهائياً) [1] .

والمتأمل فيما قاله جورج جاموف يتبين له أنه يتفق مع القول بحدوث العالم ، لأنه أثبت وجود الجزء الذي لا يتجزأ (الذرة) كما أنه أثبت أن هذا الجزء قديم غير متناه في القدم وذلك بخلاف تصور المتكلمين له ، حيث أنهم قد أثبتوا الجزء وقالوا إنه متناه وأنه مخلوق من عدم .

ويتبين أيضاً – أن الجزء الذي لا يتجزأ أو الذرة قد انتهي الآن وفي هذا دليل على أنه حادث ومخلوق ، وأن له نهاية وكل ما له نهاية لابد أن يكون له بداية . هذا وقد ذكر " هانزويشنباخ " المراحل التي مرت بها النظرية الذرية المكونة للمادة منذ بدايتها على يد " ديمقريطس " اليوناني إلي نهايتها في العصر الحديث ، ومعرفة مكوناتها . وذكر آراء العلماء في تفسير وجود جزئيات أولية للمادة .

وفي سنة ١٩٠٠ م اكتشف " بلانك " نظرية " الكوانتم " [2] . وهي صدور الإشعاع عن الأجسام الساخنة ، حيث إن الإشعاع يندرج تحت نظرية الذرية ، وذلك لأن الذرة تعد مجموعة من الجزئيات الأصغر منها .

وقيل : إن أول كشف اتضح منه أن للذرة تركيباً داخلياً هو الذي قام به العالم الروسي " منذليف " فقد أدرك في أواسط القرن التاسع عشر أنه إذا رتبت ذرات العناصـــر الكيمائيـــة حسب الوزن فإن خواصها الكيمائية تتخذ ترتيباً دائرياً [3] .

---

١ – نشوء الكون – جورج جاموف ص ٢٩ ، ترجمة إسماعيل مظهر ، ط ١٩٥١ ، مكتبة النهضة المصرية .
٢ – الجزئيات الحائرة المتناهية في الصغر .
٣ – انظر نشأة الفلسفة العلمية ص ١٥٤ .

وقد ذهب البعض إلي أن أول من وصف التركيب الداخلي للذرة هو اللورد " رذرفورد " وقيل " طومسون " .

وبناء على ذلك فإن معظم مادة الذرة تتركز في نواة ضئيلة عند المركز ، والمحيط بالنواة هو سحابة شفافة مفككة واسعة الامتداد نسبيا ، مكونة من جسيمات تعرف بالالكترونات وهو اسم مشتق من خواصها الكهربائية .

عدد ... الالكترونية هي التي تترابط بعضها مع بعض عندما يتكون ... منفصلة ، وأحياناً تنفصل بعض الالكترونات عن الذرة .

ويقال في هذه الحالة إن الذرة قد تأينت ، وتتوقف درجة التأين على عدد الالكترونات التي تنفصل عن الذرة [١] .

وفي عام ١٩٣٢ م اكتشف العالم الإنجليزي " شدوك " النيوترن .

وهذه النيوترونات تزيد الذرة وزنا ، ولكنها لا تؤثر في شحنتها الكهربائية

وقيل : إن هذا الكشف قد فتح الباب على مصرعيه لتفجير الذرة تفجيراً عنيفاً يحمل معه الهدم والخراب والدمار [٢] .

كما كشف العالم الفيزيائي الفرنسي " دي برولي " أن ذرات المادة تنتهي إلي أساس موجي ، فوضع نظرية رياضية يكون فيها كل جزئ صغير من المادة مقترناً بموجة ، ومن ثم فإن كشف " دي برولي " يمثل بداية عهد التفسير الموجي .

---

١ – انظر مشارف علم الفلك – فرد هويل ص ٦٥ ، ترجمة إسماعيل حقي – مراجعة عبد الحميد سماحه الناشر دار الكرنك ط ١١ ، ١٩٦٣ م . وانظر الفيزياء الذرية والمعرفة البشرية ينلزبور ص ٢٦ ، ترجمة رمسيس شحاته ط ١٩٧٤ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢ – انظر في سبيل موسوعة علمية . د / أحمد زكي ص ٤٢٤ ، ط ٥ ، ١٩٩٢ م . دار الشروق وانظر مشارف علم الفلك ص ٦٧ .

ثم جاء " شرودنجر " ورأى أنه يمكن الاستغناء عن الجزئيات ، وأنه توجد حزم موجية تسلك على نحو شبيه بالجزئيات ، ولكن بعد ذلك اتضح أن الرأيين لا يمكن قبولهما معاً ، فاقترح " بون " الفكرة القائلة أن الموجات لا تكون أي شيء مادي على الإطلاق ، وإنما تمثل احتمالات رياضية فحسب [١] .

وبهذا التدرج التاريخي لآراء العلماء في المادة يتضح أنها انتهت إلي لا شيء ، أي إلي العدم .

فهل يمكن – بعد ذلك – الاستدلال على حدوث العالم وخلقه من العدم عن طريق العلم الحديث الذي أثبت فناء المادة ؟ !!

يقرر العلم الحديث أن الكون متناه حجما .

حيث تمكن عالم الفيزياء الشهير " البرت أينشتين " من إيجاد نصف قطر الكون ، فوجد أن نصف قطر الكون يتناسب عكسياً مع الجذر التربيعي للكثافة ، وباستعمال أحسن التقديرات لمتوسط كثافة المادة في الكون يكون التقدير الحالي لنصف قطر الكون هو اثنان وأمامهما ثلاثة وعشرون صفراً من الأميال [٢] .

ويؤيد ذلك ما ذهب إليه " السير آرثر ادنجتون " حينما قال (.. وبطبيعة الحال تجدني أقدر أن هذه الفكرة التي تتضمن فراغاً كروياً مقفلاً يصعب هضمها إلي حد كبير ، ولكن الحق يقال : إنها ليست أسوأ من تلك الفكرة الأقدم المتعلقة

---

١ – انظر نشأة الفلسفة العلمية ص ١٥٦ ، ١٥٧ والفيزياء الذرية والمعرفة البشرية ، ص ٤٨ : ٤٩ .

٢ – انظر الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د / يحيي هاشم فرغل ص ١٤٧ ، ط ١٩٨٤ م ، دار المعارف بمصر .

بالفضاء اللانهائي المفتوح الذي لا يمكن أن يتصوره أحد ، فليس ثمة من يستطيع أن يتصور اللانهاية.ونحن نستخدم اللفظ المجرد عادة من غير محاولة استعابه[١]

وقد توصل العلم الحديث – أيضاً – إلي أن للكون بداية طبقاً لما يلي :

أولاً : أن الكون متناه في المستقبل ، ويدل على ذلك قابلية المادة للفناء وفي ذلك يقول " جورج جاموف " (إن ميكانيكا النسبية تؤدي إلي احتمال وجود عالمين مختلفين :

أحدهما : موجب ، وهو الذي نعيش فيه .

والثاني : غريب سالب ، وهو ما لا سبيل له سوي تحدي واعتراض سبيل تصوراتنا وأحلامنا ، وكتلة الأجسام في هذا العالم السالب بدورها سالبة كذلك . ومعني ذلك أنها عندما تدفع في اتجاه معين تتحرك في الاتجاه المضاد ... ونظراً لامكان وجود البروتونات والنيوترونات والكهارب التي تتكون منها ذرات المادة العادية وظهورها جميعاً في الحالات المضادة ، فإن ذلك يعني إمكان وجود المادة المكونة من هذه الجسيمات ، ومن اللازم أن تكون جميع الصفات الكيماوية والطبيعية للمادة المضادة هي عينها صفات المادة العادية . والسبيل الوحيد الذي نستطيع به أن نقرر أن مجرتين يتكونان من مادتين متضادتين فيما بينهما هو ضمهما معاً ، فإذا لم يحدث شيء فهما من نفس النوع المادي ، أما إذا حدثت بينهما عملية إفناء ذريعة فهما من مادتين متضادتين [٢] .

كما يقول أيضاً " جاموف " (ولسبب من الأسباب يشعر فريق كبير من العلماء بالاطمئنان والثقة في الرأى القائل : إنه بدراسة المادة تصل الأمور إلي

---

١ – انظر العلم أسراره وخفاياه – السير آرثر أدنجتون ج ١ ، ص ٩٩ ، ترجمة محمد صابر سليم ، ط ١٩٧١ م ، مكتبة غريب .

٢ – قصة الفيزياء – جورج جاموف ص ٣٥٤ وما بعدها ترجمة محمد جمال الدين الفندي ، ط ١٩٦٤ م دار المعارف .

النهاية ، وإن علماء الفيزياء في المستقبل سوف يقفون على جميع أسرار تركيب المادة الداخلي) [1] .

وفي موضع آخر يتكلم جورج جاموف عن فناء المادة فيقول (إن عالم الذرة تحكم شذورا مبددة ، وكل شذرة منها تكسرت شذوراً أصغر ، وتكررت عملية التشذر مائتين وستين مرة ، حتى بلغ سحق المادة مبلغ هذه الذرات الصغيرة .

وعلى هذا يكون قطر المادة أشبه شيء باستعراض ألعاب نارية انتهي توا ، فخلف من ورائه حزما حمراء وأرمدة ودخاناً ، ووقفنا نحن من بعد على رماد نرقب تخافت الشموس البطيء جاهدين أن نستعيد في أذهاننا ذلك الالتماع الزائل الذي تأصلت منه العالم [2] .

وبذلك يكون " جورج جاموف " قد أثبت فناء المادة في المستقبل .

ثانياً : أوضح – أيضاً – جورج جاموف أن العالم متناه من جهة الماضي فقال (إن المادة تتولد من لا شيء وتذهب إلي لا شيء وتفني بالإشعاع . فقد ذهب " نيل بور " إلي أن قانون بقاء الطاقة لا ينطبق في حالة تحلل بيثاذات النشاط الإشعاعي ، وإنه في حالة انبعاث جسيم بطئ من جسيمات بيتا تختفي كمية معينة من الطاقة .

أما في حالة انبعاث جسيم سريع من جسيمات بيتا فيكون من الممكن تولد كمية إضافية من الطاقة من لا شيء وتبعا لهذه النظرية فإن قانون بقاء الطاقة في العمليات النووية الأولي ينطبق على المتوسط فقط) [3] .

---

١ – المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .
٢ – نشوء الكون ، ص ٩٠ .
٣ – قصة الفيزياء ، ص ٣٨١ .

وبذلك يكون العلم الحديث قد أثبت فناء المادة من كل وجه سواء من ناحية الحجم أو الزمان من جهة المستقبل أو الماضي .

كما أنه توجد دلالات علمية قوية في علم الفيزياء الحديثة تدل على أن للعالم بداية ، وذلك عن طريق تمدد الكون ، أو كما عبر عنها " السير أرثر أدنجتون " هي مسألة الكون الآخذ في الاتساع .

يقول " السير آرثر أدنجتون " (... ويسير الاتساع بالمعدل الحالي إلي المدي الذي معه سوف تصل السدم إلي ضعف أبعادها الحالية في مدي ١٣٠٠ مليون سنة .

وعلى ذلك سوف يضاعف علماء الفلك فتحات مناظيرهم الفلكية كل ١٣٠٠ مليون سنة ، لكي يسايروا عمليات التمدد هذه .

ويبدو لنا عجيباً أن يتضاعف اتساع الكون خلال الأحقاب الجيولوجية ، ويعني ذلك لا نستطيع أن نرجع القهقري في الزمن إلي ما لا نهاية ..

ومن الاستنتاجات التي أخذناها عن النظرية النسبية أنه يجب أن توجد قوة تعرف باسم " التنافر الكوني " تعمل على نشوء مثل هذا النوع من التشتت ، الذي معه يتباعد كل جرم عن أي جرم آخر [١] .

كما يستنتج أن للكون بداية أيضاً من القانون الثاني للديناميكا الحرارية ، أو كما يسمي قانون " عدم القابلية للانعكاس " .

ونص القانون هو (ليس في الإمكان تحويل الحرارة إلي طاقة ميكانيكية من غير أن يكون لدينا فائض أو مزيد من الحرارة الهابطة من مكان ساخن إلي آخر بارد .

١ - العلم أسراره وخفاياه ص ٩٥ : ٩٧ .

ويقول – أيضاً – (إنه في جميع العمليات الحرارية يجب أن تزداد درجة التعادل دائماً) [1] .

فهذا القانون هو الذي يحكم تدفق الطاقة الحرارية من منطقة ساخنة إلي أخري باردة .

أما تسميته بقانون عدم القابلية للانعكاس فذلك لأن الحرارة تسري من الأجسام الساخنة إلي الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس .

وذلك مثل قدح القهوة الساخن فإنه يبرد نتيجة لانتقال الحرارة إلي المحيط ، ولكن الحرارة لا تسري من المحيط البارد إلي قدح القهوة الساخن .

تطبيق القانون : هو أن الحرارة تسري من الأجسام الساخنة إلي الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية .

وذلك مثل أن نلقي بمكعب من الثلج في كوب من الماء ، فإن الماء يصبح أبرد ، لأن حرارته انتقلت إلي الثلج وأذابته .

ومعني ذلك أن درجة حرارة جميع الكائنات نتيجة إلي التساوي يوماً ما وتنعدم الطاقة ، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون .

وهذا يدل على أن للكون بداية ، لأنه لو كان أزليا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد ، وتوقف كل نشاط في الوجود [2] .

---

١ – قصة الفيزياء ص ١٥٨ وانظر أساسيات الديناميكا الحرارية والكلاسيكية ، ص ٢٠٣ – ٢١٠ . جوردون .

٢ – انظر نشأة الفلسفة العلمية ص ١٤٤ وقصة الفيزياء ص ١٧٢ .

وهذا القانون نفسه هو الذي طبقه " فرنك ألن " عالم الطبيعة البيولوجية على حدوث الكون وعدم أزليته .

وقد أكد " فرنك ألن " على أنه لابد من وجود خالق لهذا الكون أزلي ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء فقال : (إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وأنها سائرة حتما إلي يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة .

أما الشمس المستعرة والنجوم المتوجهة والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث .

ومعني ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود ، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه [1] .

يتضح لنا من النص السابق أن العالم لو كان أزليا لكان بارداً ، ولكن الواقع المحسوس يثبت عكس ذلك فيدلنا ذلك على أن للكون بداية .

الاستدلال على حدوث العالم بواسطة قوانين الحركة الإلكترونية :

جاء ذلك نتيجة لتحطيم الذرة وكيفية تركيبها ، ومعرفتنا أن الذرة تتكون من نواة (البروتون والنيوترون) والإلكترون الذي يدور حولها بسرعة هائلة وبحركة دائرية .

---

١ – نقلاً عن كتاب الله جل جلاله – سعيد حوي ص ٢٣ – ٢٤ ط ٣ ، ١٩٨١ م دار القلم دمشق ، بيروت .

يقول سعيد حوي (إن الإلكترون في أكثر ذرات الوجود إن لم يكن في كلها في حركة دائمة دائرية ، وإنه يوجد أي دليل في الوجود يدل على أنه يمكن أن يكون هناك وضع آخر للإلكترون كان عليه أولاً ، ثم انتقل إلي هذه الحالة ، وإن هذا الكونْ كله مؤلف من نفس الذرات التي عرفنا خصائصها ، بل من نفس العناصر .

وهذه الحركة التي نجدها في الإلكترون نجدها في كل جرم في الفضاء ، وإن الشيء الدائر لابد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته ، وهي بداية وجود الذرات نفسها ، وبهذا يثبت أن للكون بداية [1] .

إثبات حدوث العالم عن طريق الطاقة الشمسية :

قيل إن ذرات الشموس تتحطم في داخلها المرتفع الحرارة جداً ، وبواسطة هذا التحطم الهائل المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التي لا مثيل لها ، وعندما تتحطم الذرة تفقد جزءاً من كتلتها ، حيث يتحول هذا الجزء إلي طاقة .

وإذن فكل يوم يمر على أي شمس معناه فقدان جزء ولو يسير من كتلتها ، فإن تصور أزلية الكون الحالي مستحيلة ، إذ أن شعاعاً واحداً علي مدي الأزل كاف لاستنفاذ طاقة الوجود كله [2] .

---

١ – انظر كتاب الله جل جلاله ص ٢٥ .
٢ – انظر المصدر السابق نفس الصفحة وانظر كتاب الأرض في الفضاء – شفارتز تشيلد – ترجمة محمد علي ناصف ص ٣٠ ، ط ١٩٧٧ م ، مكتبة الوعي العربي .

مما سبق يتضح لنا :

١ – أن القول بالجزء الذي لا يتجزأ (الجوهر الفرد) قد تأكد وجوده في العصر الحديث . وبذلك يكون العلم الحديث قد أيد موقف المتكلمين .

٢ – عن طريق تطور العلم وكثرة الاكتشافات العلمية المستمرة توصل العلماء إلي أن للذرة تركيبا داخلياً وأدت هذه المعرفة إلي تحطيم الذرة وانتهت إلي العدم .

٣ – حاول العلماء البحث عن أصل هذا الكون عن طريق الظواهر الطبيعية التي أوصلتهم إلي أن له بداية وأنه مخلوق من عدم وسينتهي حتما إلي العدم .

الخاتمة

بعد هذه الجولة بين ثنايا هذا البحث فقد توصلنا إلي أبرز النتائج الآتية :

أولاً : أن المصطلح الذي استخدمه أرسطو قديماً للتعبير عن فكرة الجوهر وهو (أوسيا) هو نفس المصطلح الذي استخدمه فلاسفة الإسلام وهو (جوهر) ولكنه ليس نفس الجوهر عند المتكلمين ، وذلك لأنهم – المتكلمون – يقصدون بهذه الفكرة الجزء الذي يتجزأ .

ثانياً : أننا إذا بحثنا عن مقابل لفكرة الجوهر القائم بنفسه عند الفلاسفة الإسلاميين والأوسيا الأرسطية فإننا نجد ذلك الجوهر متمثلاً في فكرة الجسم عند المتكلمين .

ثالثاً : أن فكرة الجوهر عند الهنود القدماء قد احتلت مساحة ليست بالقليلة لكن تصورهم لها كان ناقصاً لأنهم لم يتوصلوا إلي معرفة كيفية الفصل بين الجوهر المادي والجوهر الروحي .

رابعاً : أن الفلاسفة الإسلاميين أنكروا ما يسمي بالجوهر الفرد ، وذهبوا إلي أن الجسم كم متصل في نفسه قابل للقسمة إلي غير نهاية بحسب الإمكان .

خامساً : يعد أبو الهذيل العلاف – من المعتزلة – أول من حاول حل المشكلة الطبيعية وهي العالم والذي رآه متغيراً غير ثابت فعالج مشكلة التغير بمذهب الجزء الذي لا يتجزأ (الجوهر الفرد) .

سادساً : أنكر النظام – من المعتزلة – فكرة الجوهر الفرد وزعم أن كل جزء من الأجزاء لابد أن ينقسم وهو بذلك قد اتفق مع الفلاسفة الإسلاميين .

سابعاً : إن الأشاعرة قد قالوا بنظرية الجوهر الفرد لمعارضتها فكرة أرسطو عن المحرك الأول الذي يحرك فقط ولا يتحرك ، وقد وضعوا لهذه الفكرة أساساً عقائديا هاماً هو أن الله تعالي أزلي قديم .

ثامناً : أن الفلاسفة المحدثين قد قالوا بنظرية الجوهر الفرد وأسموها ألمونا يكونوا قد اتفقوا مع المتكلمين خاصة " ليبنتز " .

تاسعاً : إن التطور العلمي قد توصل إلي أن للذرة تركيبا داخلياً وقد أدت هذه المعرفة إلي تحطيم الذرة حتى انتهت إلي العدم .

والحمد لله الذي بيده تتم الصالحات

وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ثبت بأهم مراجع البحث

١ - أبكار الأفكار للآمدي ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٦٠٣ علم الكلام .

٢ - الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ، د : يحيي فرغلي ١٩٨٤ دار المعارف بمصر .

٣ - (الله) سعيد حوي ١٩٨١ دار القلم دمشق وبيروت .

٤ - الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي - د : محمد جلال شرف ١٩٨٩ م دار المعرفة الجامعية .

٥ - تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولي - ديكارت - ترجمة كمال الحاج ١٩٦١ منشورات عويدات - بيروت .

٦ - التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض - الحسن بن متوية المعتزلي - تحقيق سامي لطفي - دار الثقافة - القاهرة .

٧ - التمهيد للباقلاني - تعليق محمود الخضري - دار الفكر العربي ١٩٤٧ م .

٨ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية - ترجمة د : عبد الرحمن بدوي ١٩٤٠ م النهضة المصرية .

٩ - تاريخ الفكي الفلسفي - د : محمد أبو ريان ١٩٦٥ م مكتبة الإسكندرية .

١٠ - تاريخ الفلسفة في الإسلام - ديبور - ترجمة أبو ريدة ١٩٥٤ م القاهرة .

١١ - درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية - تحقيق محمد رشاد سالم ، النور الأدبية .

١٢ - الحروف للفارابي - تحقيق محسن مهدي ١٩٧٠ م بيروت .

١٣ - رسائل الكندي الفلسفية - تحقيق أبو ريدة - دار الفكر العربي ١٩٧٨ م .

١٤ – الشامل في أصول الدين للجويني – تحقيق النشار وآخرين ١٩٦٩ م منشأة المعارف بالإسكندرية .

١٥ – الشفاء لابن سيناء – تحقيق سعيد زايد ١٩٨٣ م الهيئة العامة للكتاب بمصر .

١٦ – طريق الفيلسوف – جان فال – ترجمة أحمد حمدي محمود ١٩٦٧ سجل العرب بالقاهرة .

١٧ – العلم أسراره وخفاياه – ألسير آرثر – ترجمة محمد صابر سليم – ١٩٧١ مكتبة غريب .

١٨ – فكرة الجوهر في الفكر الفلسفي الإسلامي – سامي لطفي ١٩٧٨ م مكتبة الحرية الحديثة .

١٩ – المعجم الفلسفي – جميل صليبا ١٩٨٢ دار الكتاب اللبناني – بيروت .

٢٠ – المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين – النيسابوري – تحقيق معن زيادة ١٩٧٩ م – بيروت .

٢١ – مذهب الذرة عند المسلمين – بنيس – ترجمة أبو ريدة .

٢٢ – منهاج السنة – ابن تيمية – تحقيق محمد رشاد سالم ١٩٦٢ م القاهرة .

٢٣ – نشأة الفلسفة العلمية – هانز شنباخ – ترجمة فؤاد زكريا ١٩٦٧ م دار الكتاب العربي – القاهرة .

٢٤ – النجاة – ابن سينا – تقديم ماجد فخري ١٩٨٥ م دار الآفاق – بيروت .

٢٥ – نشوء الكون – جورج جاموق – ترجمة إسماعيل مظهر ١٩٥١ م مكتبة النهضة .

٢٦ – نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – النشار ١٩٦٥ م الإسكندرية .

٢٧ – النفس والجسد – محمود زيدان – دار الكتب الجامعية .